# استدراج الظالمين لغيرهم في القرآن الكريم
# عوامله، ووسائله، وأساليبه
# (قصة فرعون أنموذجًا)

# The Luring of Wrongdoers for Others in the Glorious Qur'an: Its Factors, Means, and Methods: Pharaoh's Story as a Model


د. نصر عبد الغني مطهر[1]

Dr. Nasr Abdulghani Mutahar

أحمد علي أحمد علي الحدأ

Ahmed Ali Ahmed Al-Hada

عبد السلام سيف غالب محمد

Abdulsalam Saif Ghalib Mohammad

هشام هاشم قائد سلطان

Hisham Hashim Qaid Sultan



https://doi.org/10.54582/TSJ.2.2.58



(1) استاذ علوم القرآن المساعد – بجامعة السعيد

عنوان المراسلة : nasrmutahar334@gmail.com

**الملخص:**

هدف البحث إلى معرفة كيفية استدراج الظالمين لغيرهم في القرآن الكريم (قصة فرعون أنموذجًا) فقد قص لنا القرآن الكريم قصص استدراج الله --سبحانه وتعالى-- للظالمين، وحكى لنا أن الظالمين نُصِحوا فأعرضوا، وضلوا وأضلوا فجاهروا بالعداء، واستجمعوا كيدهم وأعوانهم، وإعلامهم وإغراءاتهم، وعدتهم وعتادهم؛ ليستقووا على الحق المبين، فتراهم تارة يغوون الناس بالمال، وتارة بالقوة، وتارة بالجدال، وتارة بالشبهة، يستهزئون بعقول الضعفاء.

وممن حكى الله لنا قصته واستدرج تابعيه إلى ضلاله، هو فرعون وحكى لنا وسائله وأساليبه في استدراج الضعفاء من شعبه، وإغواء أتباعه، حتى وإن كانوا من المقربين.

وتبرز أهمية هذا البحث في كونه يتطرق حول موضوع مهم تعيشه الأمة العربية والإسلامية في هذا العصر حيث يتناول نوعا آخر من الاستدراج لم يتناوله كثير من الباحثين من قبل حيث يقدم وعيًا مجتمعيًا يستطيع إدراك وسائل وأساليب أهل الظلم في محاولة خداعهم وكيف يواجهونها من خلال السير في المنهج النبوي القويم، حيث هدف البحث للتعريف بمعنى الاستدراج وتوضيح العوامل المعينة للظالمين في استدراج غيرهم، وبيان الأساليب والوسائل التي يستخدموها لتحقيق ذلك، وإسقاطه على الواقع ومقارنته به، حيث تناول البحث ذلك في **مبحثين: المبحث الأول**: تناول فيه مفهوم الاستدراج والعوامل المعينة على استدراج الظالمين لغيرهم وتضمن مطلبين. **أما المبحث الثاني** فقد تناول أساليب ووسائل الاستدراج التي استخدمها فرعون وفيه مطلبان.. وبعد سرد تلك الأحداث والمشاهد التي ظهرت من خلالها وسائل وأساليب استدراج الظالمين لغيرهم توصل البحث إلى عدة نتائج منها:

– إن استدراج الظالمين لغيرهم يحدث نتيجة توفر عوامل كثيرة تحيط بالمستدرِج والمستدرَج، وتلك هي العوامل التي يستغلها الطغاة لاستدراج شعوبهم، ويحرصون على دوامها؛ ضمانًا لدوام استعلائهم.

– إن غفلة الجماهير هي المعين الأول لنجاح أهل الظلم، وتلك هي التركيبة التي يسعى الظالمون لبقائها في أذهان الجماهير.

– إن الواقع الذي نعيشه اليوم من استدراج للشعوب، وصناعة وهمية للعظماء عبر عملية الاستدراج قائم على نفس الوسائل والأساليب القديمة وإن اختلفت المسميات.

ويوصي البحث الشعوب العربية والإسلامية بالسير وفق المنهج القرآني والنبوي والحذر من الوقوع في شراج استدراج الظالمين لعقول شعوبهم الغافلة.

الكلمات المفتاحية : قصة فرعون – الظالمين – استدراج.

## Abstract

The research is aimed to know the oppressors' luring of people with reference to the story of Pharaoh mentioned in the Qur'an, and to define the meaning of luring and clarify the specific factors of the oppressors in luring others, and the statement of the methods and means they use to achieve this. The research includes an introduction, the research problem, its objectives and importance, its limits, and previous studies. The importance of this research is highlighted in the fact that it deals with an important topic experienced by the Arab and Islamic nation in this era, where it deals with another type of solicitation not addressed by many researchers before. It also provides a societal awareness that can help people realize the means and methods of the oppressors in trying to deceive them and how people face the oppressors by walking in the right prophetic approach. The research is divided into two sections. The first section deals with the concept of luring and its factors. And the second section focuses on the means and methods of luring that Pharaoh used. The research reveals that the luring of the oppressors for others occurs due to the availability of many factors that tyrants exploit to lure their people, and ensure their permanent dominance. It also shows that the oppressors have a special view of the masses they rule, so even if they possess the means and methods that help them to lure, the heedlessness of the masses is the first determinant of their success, and this is the structure that the oppressors seek to maintain in the minds of the masses. This reflects that the reality in which we live today is based on the same old methods, even if the names are different. As long as the masses live in an unbalanced circle, legally and customarily, the oppressors' disdain for their minds is the inevitable outcome. The research recommends that the Arab and Islamic peoples must follow the Qur'anic and Prophetic approach, and beware of falling into the trap of oppressors' temptation of the minds of their heedless people.

Keywords: Pharaoh's Story – The Luring –Wrongdoers.

**مقدمة البحث**

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، محمد بن عبد الله الصادق الأمين، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى أثره واستن بسنته إلى يوم الدين ... أما بعد:

فإن الله تعالى قد جعل لخلقه منهجًا قويمًا يدلهم على سبيله، اهتدى به منهم من اهتدى، وضل منهم من ضل.

وقد قص لنا القرآن قصص استدراج الله –سبحانه وتعالى– للظالمين، فقد حكى لنا أن الظالمين يمكرون ولا يعلمون أن الله يمكر بهم، وهو خير الماكرين، وقدجعلنا من قصة فرعون أنموذجًا نبين فيه ذلك.

وكان مما زاد الهمة في دراسة هذا الموضوع دراسة بحثية علمية قلة الباحثين فيه، إذ إن الاستدراج بمعناه الاصطلاحي عند الناس ارتبط باستدراج الله تعالى للظالمين، وإهلاكه إياهم بعد أن ظنوا أنهم على الطريق المستقيم، فكان هذا البحث من الأبحاث القليلة التي اهتمت بهذا الموضوع – حسب علم الباحثين .

وقد عُدَّ البحث حول موضوع الاستدراج وجدناه قصرًا حول استدراج الله تعالى للظالمين بحجة أن الاستدراج لا يكون إلا من جهة ذات حق وغلبة لجهة ذات عجز وبطلان، فحرصنا في هذه الدراسة أن نؤصل لمصطلح الاستدراج بمعناه اللغوي والاصطلاحي، ونبين طريقة استخدامه في اللغة عند الأسلوبيين، وأصلنا للمصطلح علميًا للوصول إلى إثبات صحة استخدام لفظ الاستدراج من أي جهة كانت نحو أي جهة أخرى، ثم ذكر في هذا البحث تلك العوامل التي يستغلها الطغاة في استخدام أسلوب الاستدراج من حيث القوة والسلطان الذي يعيشونه، وبيان ردود الأفعال المجتمعية المعينة على نجاح وسائل الظالمين وأساليبهم في استدراج غيرهم سواءً بسعيهم نحو تجهيلٍ لكل المجتمعات وصناعتها صناعةً تبعيةً تسير خلفهم بكامل عماها، أو عن طريق استغلال تبعية المقربين من الطاغية ذاته في التأثير على من دونهم والتي تزيد غواية الظالم وتشجعه على إغواء غيره من الناس.

وأشار البحث إلى بيان ما ذكر حول قصة فرعون مع قومه المذكورة في القرآن الكريم لتتضح الصورة، ويتبين المقصود وتُجنى الثمرة بالنتائج والتوصيات الموجودة في آخر البحث والمستنبطة مما ذُكر.

كما حرصنا على إسقاط ما ذكر في واقعنا اليوم ومقارنته به لتتبين هذه السياسة الخفية المعروفة بالاستدراج التي يستخدمها الظالمون في استرقاق شعوبهم وتوجيهها نحو ما يرغبون أو يحبون.

**مشكلة البحث**

إن الواقع الأليم الذي تعيشه الأمة العربية والإسلامية في وقتنا الحاضر تحت وطأة أهل الظلم، وما يقومون به من وسائل وأساليب لإغواء الشعوب والسيطرة

عليها واستعبادها، وما ينبغي على أبناء هذه الأمة اتجاه ذلك من السير في المنهج النبوي القويم يتناوله هذا البحث من خلال الإجابة عن الأسئلة التالية:

س/ ما الاستدراج؟ وممن يكون؟

س/ ما أساليبه المستخدمة في حال أنه وسيلة للظالمين لإغواء غيرهم؟ وما عوامله؟

س/ كيف استطاع فرعون أن يضل قومه رغم بيان الحق عندهم ووضوحه؟

**أهداف البحث**

يهدف هذا البحث إلى:

1 – معرفة معاني الاستدراج وإسقاطها على الواقع.

2 – بيان العوامل المعينة للظالمين في استدراج غيرهم.

3 – معرفة التركيب الاجتماعي للجماهير في أذهان الظالمين.

4 – بيان الأساليب والوسائل التي يستخدمها الظالمون لاستدراج غيرهم.

5 – إسقاط تلك الأساليب والوسائل في الواقع ومقارنتها به.

**أهمية البحث**

تبرز أهمية هذا البحث في كونه يطرق موضوعًا مهمًا تعيشه الشعوب العربية والإسلامية في هذا العصر، ويبين نوعًا آخر من الاستدراج لم يتطرق لذكره كثير من الباحثين، فهو يبين مدى الوهم الذي اصطنعه الظالمون ليقنعوا شعوبهم بأحقيتهم للاستعلاء وأفضليتهم على من سواهم، وفيه بيان لأساليبهم المستخدمة للوصول إلى رغباتهم، ويقدم هذا البحث وعيًا مجتمعيًا يستطيع معرفة تلك الأساليب الخداعة وعدم الاغترار بها والسير في المنهج النبوي القويم القائم على التواصي والتناصح لا على التبعية العمياء.

**حدود البحث**

يقتصر هذا البحث على الاستدراج من الظالمين لغيرهم، قصة فرعون مع قومه.

**الدراسات السابقة**

ورد في هذا الموضوع دراسات عدة، وقد وجدنا تلك الدراسات تناقش موضوع الاستدراج من جوانب مختلفة اهتمت بها، ولكننا لم نجد وفق ما توصلنا إليه من البحث دراسة متخصصة في استدراج الظالمين لغيرهم، وقد توزعت الدراسات السابقة على العناوين التالية:

1 – دراسة رياض هاشم هادي[1] التي هدفت إلى معرفة (الاستدراج في القرآن الكريم والسنة النبوية) وذكرت خلالها خمسة مباحث تدور حول تعريف الاستدراج، ثم ذكر استدراج الله تعالى للكفار، ثم المنافقين، ثم الأمم، إلا أنه لم تتطرق لذكر استدراج الظالمين لغيرهم، وبيان العوامل والوسائل والأساليب المؤدية لذلك وهذا ما سيتم تناوله في هذا البحث.

2 – دراسة محمد بن عبدالله بن محمد بو طيبان[2] والتي هدفت إلى معرفة (الاستدراج وأحكامه الفقهية) وذكرت ثلاثة مباحث تدور حول تعريف الاستدراج، وعلاقته بقاعدة المصالح والمفاسد، وقواعد الوسائل والمقاصد، أما الدراسة الحالية تطرقت لتعريف الاستدراج، وأضافت ذكر أحوال لظالمين في استدراج شعوبهم.

3 – دراسة سيروان عبده الزهرة الجنابي، وزينب حكيم عبيد الوطيفي[3] واهتمت بتعريف الاستدراج

(1) مجلة كلية العلوم الإسلامية، المجلد الثاني، العدد الثالث، 1429هـ – 2008م

(2) جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1426 – 1427 هـ.

(3) جامعة بابل، العلوم الإنسانية، المجلد 23، العدد1، 2105م.

بمفهومه العام، ثم تعريف الاستدراج بالنص القرآني، وإثبات وحدانية الله ﷻ من خلالها، أما الدراسة الحالية ذكرت تعريف الاستدراج ولمحة عن علاقته بالنص القرآني، وزادت ذكر الأساليب والوسائل التي استخدمها الظالمون في إغواء شعوبهم، والعوامل المؤدية لذلك.

**هيكلية البحث**

المقدمة، وفيها: مشكلة البحث، أهداف البحث، أهمية البحث، حدود البحث، الدراسات السابقة.

المبحث الأول: مفهوم الاستدراج والعوامل المعينة على استدراج الظالمين لغيرهم.

المطلب الأول: الاستدراج في لغة العرب والتأصيل للمعنى الاصطلاحي له.

المطلب الثاني: بيان العوامل المعينة للظالمين على استدراج غيرهم .

المبحث الثاني: في أساليب ووسائل الاستدراج التي استخدمها فرعون وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الوسائل التي استخدمها فرعون في استدراج شعبه ومقارنتها بالواقع.

المطلب الثاني: الأساليب التي استخدمها فرعون في استدراج شعبه ومقارنتها بالواقع.

خاتمة البحث

النتائج والتوصيات

المصادر والمراجع

**المبحث الأول: مفهوم الاستدراج والعوامل المعينة على استدراج الظالمين لغيرهم، وفيه مطلبان: المطلب الأول: الاستدراج في لغة العرب والتأصيل للمعنى الاصطلاحي له، والمطلب الثاني: بيان العوامل المعينة للظالمين على استدراج غيرهم.**

**المطلب الأول: الاستدراج في لغة العرب والتأصيل للمعنى الاصطلاحي له**

**أولًا: المعاني المتعددة لجذر كلمة (استدراج) الثلاثي (درج)**

الجذر الثلاثي لكلمة ( استدراج ) هو (درج) وله عدة معانٍ في اللغة فقد ذكر الخليل في العين هذه الكلمة فقال : «[ الدرج] : جماعة عتب الدرجة، و[ الدرجة] : الرفعة في المنزلة وتجمع [الدرج]، ودرجات الجنان: منازل أرفع من منازل»[4].

وجاء في المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية معنى بعض مشتقات الجذر فذكروا فيه قولهم: «و [الدَّرَّاج]: النمام، و[الدُّرَّاج]: نوع من الطير يدرج في مشيه»[5]، فنجد أن الجذر له ارتباط كبير بالمشي ، والمضي وهذا ما أورده ابن فارس في معجمه قائلًا: «الدال والراء والجيم أصل واحد يدل على مضي الشيء، والمضي في الشيء إذا مضى لسبيله»[6] وتمتد هذه الدلالة أيضًا على متعلقات المشي كالأرجل والطريق وغيرها مما ذكر آنفًا.

ومن الدلالات المهمة لهذا الجذر ما ذكره الأزهري[7] في تهذيب اللغة بقوله: « [الإدراج]: لف الشيء في الشيء، وأدرجت المرأة صبيها في معاوزها ، وأدرج الميت في أكفانه ، وأدرجت الكتاب في الكتاب إذا جعلته في درجه أي في طيه»[8].

ومن خلال هذه المعاني التي يظهر أن الجذر الثلاثي {درج} مرتبط بالسير بطيئًا كان أو عاديًا، وقد يكون هذا السير مرتبطًا بأعمال خفية مفضية إلى أضرار جسيمة كما هو حال النمام الذي يمشي بين الناس بالنميمة، وكذلك ارتبط هذا الجذر بالاحتواء واللف الذي يغطي الشيء ويواريه كما هو حال إدراج الميت

(**4**) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، (بدون)، العين، ط (بدون)، ج 6، ص 77، 78.

(**5**) مجمع اللغة العربية، ( 1425هـ- 2004م)، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط4، ص278.

(**6**) ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا، ( 1422 هـ - 2001 م)، مقاييس اللغة، دار إحياء التراث العربي، ط1، ص 335.

(**7**) محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور: أحد الأئمة في اللغة والأدب، مولده ووفاته في هراة بخراسان.

نسبته إلى جده «الأزهر» عني بالفقه فاشتهر به أولا، ثم غلب عليه التبحر في العربية، فرحل في طلبها وقصد القبائل وتوسع في أخبارهم.

ووقع في إسار القرامطة، فكان مع فريق من هوازن «يتكلمون بطباعهم البدوية ولا يكاد يوجد في منطقهم لحن» كما قال في مقدمة كتابه «تهذيب اللغة» – ط .

ومن كتبه «غريب الألفاظ التي استعملها الفقهاء – خ»و«تفسير القرآن»و«فوائد منقولة من تفسير للمزني – خ» خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي( 2002م)، الأعلام، دار العلم للملايين، ط15، ج5، ص211.

(**8**) الأزهري، محمد بن أحمد، (بدون)، تهذيب اللغة، دار إحياء التراث العربي، ط 1، ص 334.

في كفنه وكل هذه المعاني ستكون عونًا في استنباط المعنى الاصطلاحي للاستدراج.

**ثانيًا: المعاني اللغوية لكلمة (الاستدراج):**

ذكر ﷻ الاستدراج في كتابه العزيز فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ]سورة الأعراف، آية: 182[، وقد ذكر القرطبي في تفسير هذه الآية ما نصه: «فالاستدراج هو أن يحط درجة بعد درجة إلى المقصود، قال الضحاك: كلما جددوا لنا معصية جددنا لهم نعمة»[9]

وقال الفيروز آبادي في قاموسه: «و[استدراج الله تعالى العبد]: أنه كلما جدد خطيئة جدد له نعمة وأنساه الاستغفار، أو أن يأخذه قليلًا قليلًا، ولا يباغته»[10] وقال: «و [استدرجه]: خدعه وأدناه»[11] وذكر ابن منظور لفظ الاستدراج فقال: «ويقال استدرجت الناقة ولدها إذا استتبعته بعدما تلقيه من بطنها»[12] ومما ذكر سابقًا يتضح أن معنى الاستدراج يدور حول الإدناء والتقريب من المقصود شيئًا فشيئًا دون علم المستدرَج، وهذا ما ذكره ابن عاشور في تفسيره للآية السابقة بقوله مبينًا معنى الاستدراج: «والكلام تمثيل لحال القاصد إبدال حال أحد إلى غيرها دون إشعاره»[13].

**ثالثًا: التأصيل للمعنى الاصطلاحي لكلمة الاستدراج**

- **الأساس اللغوي للمعنى الاصطلاحي**

للحديث عن تعريف كلمة ما تعريفًا اصطلاحيا فلا بد من بناء هذا التعريف على أسس لغوية يستقيم بها ويرجع إليها، وقد ذُكر في المطلب الأول عدة معان في اللغة لكلمة الاستدراج، وهي التي سيُعتمد عليها في بناء التعريف الاصطلاحي للكلمة، ومما ذكر أن الاستدراج يأتي بمعنى المشي البطيء، وهذا المعنى في الحقيقة يصب في عمق المعنى الاصطلاحي للاستدراج؛ فالمستدرج عندما يستدرج أحدًا فلا بد له أن يسحبه بخطوات بطيئة متأنية تمامًا كتأني الصبي في مشيته الأولى أو الشيخ كبير السن فمشيتهم تسمى (درجان)، ومن هنا نضع أول أساس لغوي نبني عليه المعنى الاصطلاحي للكلمة، وإذا نظرنا إلى معنى آخر من المعاني اللغوية للفظ الاستدراج نجد أنه يأتي بمعنى الطريق ومنه يسمى الممر (مدرجة)، وبهذا الأساس اللغوي أيضًا نجد أن الاستدراج لا بد له من منهجية ترسم للمستهدَف ممرًا يستدرجه من خلاله، فلا يمكن للاستدراج أن يكون بطريقة عشوائية عبثية وإلا لن يصل المستدرِج إلى هدفه البتة، ومن هذا الأساس اللغوي المهم نجد للإمام البغوي – رحمه الله – في تفسيره كلامًا نفيسًا يؤصل لهذا المعنى حيث يقول : «قال أهل المعاني: الاستدراج أن يُتدرج إلى الشيء في خفية قليلًا قليلًا فلا يباغت ولا يجاهر»[14] ويعلم مما ذكر أن الحالة الموصوفة آنفًا لا بد لها من مدرجة وطريق تسير عليها.

ومن الأساسات اللغوية التي سيُبنى عليها المعنى الاصطلاحي للفظ الاستدراج هو ما جاء بلفظ (درَّاج)

(**9**) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، (بدون)، الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، ج7، ص329.

(**10**) الفيروز آبادي، ( 1991م – 1412هـ)، القاموس المحيط، دار إحياء التراث العربي، ط1، ج1، ص395.

(**11**) المصدر نفسه، ج1، ص395

(**12**) ابن منظور، مصدر سابق، ج4، ص321.

(**13**) بن عاشور، محمد الطاهر بن محمد، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، ط(بدون)، ج9، ص191.

(**14**) البغوي، الحسين بن مسعود بن محمد، ( 1409هـ – 1989م)، معالم التنزيل، دار طيبة لنشر والتوزيع، ط1،ج3، ص308.

وهو النمام حيث إن النمام يتنقل بين الناس بالخبر ليشعل الفتنة بينهم رويدًا رويدًا وفق طريقة ممنهجة لذلك، ومن هنا يظهر أن المعنى الاصطلاحي للتدرج الحاصل مرتبط بضرر مستقبلي يريده المستدرِج لمن أراد استدراجه بطريقة يظن المستدرَج أنها تنفعه ولا يعلم عاقبتها، وفي هذا المعنى يقول الإمام الطبري – رحمه الله –: « وأصل الاستدراج اغترار المستدرَج بلطف من استدرجه حيث يرى المستدرَج أن المستدرِج إليه محسن ، حتى يورطه مكروها»[15]،وهذا المعنى له تأثير كبير في التعريف الاصطلاحي بكلمة الاستدراج المخصوصة في هذه الدراسة وإلا فالاستدراج قد يكون إلى أسوأ وقد يكون إلى أحسن، وفي صدد هذا المعنى تكلم ابن عاشور – رحمه الله – قائلًا: « فالسين والتاء في فعل الاستدراج للطلب، أي طلب منه أن يتدرج، أي صاعدًا أو نازلًا – ثم قال – والقرينة تُعَيِّنُ المقصود من انتقال إلى حال أحسن أو أسوأ»[16] ، وإنما ارتبط معنى الضرر بكلمة الاستدراج بهذه الدراسة؛ لأنها تدور في فلك استدراج الظالمين لغيرهم والظلم مرتبط بالضرر ارتباطًا وثيقًا لا ينفك عنه.

ومن المعاني الأساسية التي سيُبنى عليها المعنى الاصطلاحي للاستدراج اللف والطيّ ومنه قول القائل: (أدرج الميت في كفنه)، ومن هذا الأساس نجد أن الاستدراج هو إحاطة بالمستدرَج إحاطة تامة تصل به رويدًا رويدًا عبر طريق ممنهج لتنقله من حال إلى حال، وهذا الإحاطة تكون إحاطة شاملة يصعب خروج المستدرَج منها.

- **المعنى الاصطلاحي للفظ الاستدراج**

يعرفه الجرجاني بقوله : « هو أن يجعل الله تعالى العبد مقبولًا وقتًا فوقتًا إلى أقصى عمره للابتدال بالبلاء والعذاب، وقيل: الإهانة بالنظر إلى المآل»[17]، فنجده بهذا التعريف قد شمل الأسس اللغوية المذكورة من سير متمهل في طلب المستدرَج، والإحاطة به، والضرر المستقبلي المنتظَر للمستدَرج عبر طريق معروفة، ومنهج مُعدّ، ولكنه حصره في موضوع استدراج الله –سبحانه وتعالى– للمبعَدين عن رحمته، ولا ضير أن يكون هذا تعريف هذا النوع من الاستدراج إذ إنه بُني على الأسس اللغوية له، لكنه لا يمكن أن يكون تعريفًا شاملًا للفظ يحتوي كل جوانبه، وبتدقيق النظر نجد أن الجرجاني عندما ذكر تعريفًا آخر للاستدراج بقوله: «الإهانة بالنظر إلى المآل»[18] كان بذلك قد رسم الإطار العام للتعريف الواسع لمصطلح الاستدراج؛ إذ أنه لم يحصره في مجال معين، ولكنه لم يستوف الأسس اللغوية التي ينبني عليها فتجده وضع بهذا التعريف منهجًا وطريقًا يسير فيه المستدرِج بقوله: (النظر إلى المآل) وعبّر عن حال العاقبة بالإهانة فحصر المعنى العام في الضرر المستقبلي المتعين بعد الاستدراج، وهذا وإن كان يوافق التعريف المقصود في هذه الدراسة بهذه الجزئية إلا أنه أيضًا لا يصلح لأن يكون تعريفًا عامًا واسعًا للاستدراج.

وإذا نظرنا لقول ابن الأثير الجزري في تعريفه للاستدراج سنجده أيضًا هو الآخر قد حصره في معنى

(**15**) الطبري، محمد بن جرير بن يزيد، ( 1421هـ – 2001م)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)، دار إحياء التراث العربي، ط1، ج9، ص161.

(**16**) ابن عاشور، مصدر سابق، ج9، ص191.

(**17**) الجرجاني علي بن محمد، معجم التعريفات، دار الفضيلة، ط (بدون)، ص20.المصدر نفسه، ج1، ص488

(**18**) ابن الأثير، ضياء الدين نصر بن محمد، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، دار نهضة مصر، ط2، ج2، ص250 المصدر نفسه، ج2، ص250.

مخصوص وفق المادة العلمية التي ألَّفها فقد ذكر في كتابه المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر تعريف الاستدراج كأسلوب بلاغي فقال: «هو مخادعات الأقوال التي تقوم مقام مخادعات الأفعال»[19] وابن الأثير وإن كان –كما قال – أول من أظهر هذا الأسلوب البديع من كتاب الله تعالى، فقد عبّر عنه بأنه ليس محصورًا في البلاغة فقط فقد يكون له تأثير واقعي في استدراج الخصم بالكلام فقال: «والكلام فيه وإن تضمن بلاغة فليس الغرض ها هنا ذكر بلاغته فقط، بل الغرض ذكر ما تضمنه من النكت الدقيقة في استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم»[20] ، والمدقق في التعريف الذي جاء به ابن الأثير سيجده أيضًا مبنيًا على الأسس اللغوية التي عُرِضت سابقًا؛ فهو مبني على المخادعات التي تعني: السير الخفي بالكلام مع المستدرَج بطريقة ممنهجة لتغير حال السامع من حال إلى حال كما تقوم الأفعال تماما، ولكنه أيضًا حصره في مجال البلاغة كأسلوب قرآني له تأثير بالغ في تغيير حال الخصم، وكثيرًا ما يُستخدم في الخطابات الجدلية بين الخصوم وبيان ذلك في كتب البلاغة، وهكذا نجد أن الاستدراج مصطلح واسع يدخل في كثير من المجالات الفعلية والقولية ونجد أن كل مختص في فن من الفنون يُعَرِّفُه بما يتوافق مع التخصص المنتمي إليه، ويمكن أن نعرف الاستدراج كمعنى عام بأنه: عملية طلب تغيير حال إلى حال أخرى بالقول أو الفعل بشكل تدريجي وفق منهج مدروس يحيط بالمستدرَج إحاطة شاملة، وفي حال خصصنا هذا التعريف بما يتوافق مع المادة المتعلقة بموضوع هذه الدراسة فيمكن أن نعرفه بأنه: عملية طلب الظالم تغيير حال المظلوم من حال المعارضة إلى حال المناصرة بالقول أو الفعل بشكل تدريجي وفق منهج مدروس يحيط بالمظلوم إحاطة شاملة، ومن هذا المنطلق سيعتمد البحث بناء موضوعات هذه الدراسة جاعلًا من قصة الطاغية فرعون نموذجًا من النماذج التي ذكرها القرآن الكريم، والتي بين فيها الأساليب والوسائل التي يستدرج فيها الطغاة والظالمون أتباعهم؛ فيضمنوا بذلك ولاءاتهم ونصرتهم لهم؛ فينجحوا بذلك في عملية استدراجهم.

**المطلب الثاني: بيان العوامل المعينة للظالمين على استدراج غيرهم**

إن الاستدراج بمعناه الواسع يحتوي على صور عديدة كما وضحها المبحث السابق إلا أن هذا البحث سيركز على نوع من أنواع الاستدراج دائر بين البشر؛ فهو يتكلم عن استدراج الظالمين لغيرهم وعوامل هذا الاستدراج في القرآن الكريم ووسائله وأساليبه، والمتدبر لآيات الكتاب العزيز سيجده قد اهتم بهذا الأمر كثيرًا؛ فذكر قصصًا للظالمين، وذكر أساليبهم ووسائلهم في الاستدراج التي تحشد لهم الأنصار والأتباع، فتجد ذكرًا لقصة قارون واستدراجه للناس عبر الشهرة والفخر، وتجد قصة السامري واستدراجه للناس بالشبهة، وتجد قصة إبليس واستدراجه للعباد بشتى الوسائل ابتداءً بقصته مع سيدنا آدم فما دونها من القصص، وتجد كثيراً من أساليب الاستدراج التي يبذل فيها الظالمون قصارى جهدهم لحشد الأتباع والأنصار.

وهذا البحث سيسلط الضوء على قصة أحد الظالمين الذين جمعوا لهم من الحشود الناصرة ما يعمي بصائرهم، ويطفئ مداركهم، حتى إنهم وصلوا إلى تجاوز حدود البشرية لادعاء الألوهية وإعلانها صريحة أمام شعوبهم وحشودهم التي استدرجوها، إنها قصة فرعون مصر الذي كان في أيام موسى عليه السلام، فالناظر في

آيات القرآن الكريم التي تحكي أحوال فرعون يجد فيها من الغرور والطغيان ما كان سببًا في رفضه للحق وصده عنه، وقد قال الله تعالى عنه وملأَه: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ ]سورة النمل، آية: 14[، وتلك الأسباب التي مارسها فرعون حتى وصل إلى ما وصل إليه فيها من الاستدراج لشعبه ما جعلهم يذعنون له ويقبلون أمره بل ويؤلهونه، ولكنّ هذا الاستدراج الذي حصل لقوم فرعون كانت له عوامل مهيئة لقبول الباطل المبين وتفضيله على الحق الأشد بيانًا، وسنتطرق في هذا المبحث إلى ذكر بعض وأهم تلك العوامل التي جعلت من فرعون الشخصية الأولى على الإطلاق بين شعبه، والتي جعلته المحرك العام لتحركات المجتمع المصري في ذلك الزمان والمرشد الأعلى لهم في جميع أمور حياتهم .

وركز هذا المبحث على عاملين مهمين من تلك العوامل التي يسَّرت لفرعون أساليب ووسائل الاستدراج لقومه وهي:

1 – القوة والسلطة في حياة الطاغية فرعون.

2 – الملأ ودورهم في صناعة التبعية لدى الجماهير.

**أولًا: القوة والسلطة في حياة الطاغية فرعون**

**– القوة والسلطة وبيان مداهما عند فرعون**

عندما أرسل الله تعالى موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه ذكر ﷻ سبب اختيار فرعون كوجهة للدعوة التي سيحملها نبيه الكليم، قال تعالى: ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ ]سورة النازعات، آية: 17[ ، فكان الطغيان الذي بلغ مبلغه في عهد فرعون داعيًا إلى ردعه ورده عن غيّه، والطاغية لا يقوى على إظهار طغيانه إلا إذا امتلك من القوة والسلطان ما يمكنه من ذلك، وقد كان لفرعون من القوة ما يمكنه من إظهار ذلك الطغيان في الأرض واتبع سياسة التفريق بين طوائف المجتمع ليضعف اللحمة المجتمعية ويتقوى عليهم قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ ]سورة القصص، آية:4[، فكانت القوة التي يمتلكها فرعون محركًا أساسيًا من محركات الدكتاتورية الظالمة على شعبه، ولبيان مدى تلك القوة التي امتلكها فرعون يكفي أن نذكر أنها كانت سببًا في منع كثير من قوم موسى عليه السلام من الإيمان به، بل حتى من آمن كان إيمانه على خوف من فرعون وملئه، وبيَّن الله سبب ذلك التردد في الإيمان فذكر ﷻ أن السبب هو علو فرعون وفساده قال تعالى: ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ ]سورة يونس، آية: 83[، والناظر في أي حضارة يستطيع قياس مدى قوتها من خلال ما تتركه من الآثار والعمران، وقد عقد ابن خلدون فصلًا في مقدمته يتحدث فيه على أن آثار الدولة كلها على حسب قوتها في أصلها فقال: « والسبب في ذلك أن الآثار تحدث عن القوة التي كانت بها أولًا، وعلى قدرها يكون الأثر فمن ذلك مباني الدولة، وهياكلها العظيمة فإنما تكون على نسبة قوة الدولة في أصلها؛ لأنها لا تتم إلا بكثرة الفعلة، واجتماع الأيدي على العمل بالتعاون فيه»[21]

وقد ذكر الله ﷻ قدرة فرعون على تشييد العمران ورفع المباني بيانًا لمدى قوته بين شعبه فقال: ﴿وَقَالَ

(21) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، ( 1425هـ – 2004م)، مقدمة ابن خلدون، دار يعرب، ط1، ج1، ص354.

فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ. أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ﴾ ]سورة غافر، آية: 36، 37[، فهو يظهر قوته بين قومه بارتفاع عمرانه، ويبين سطوته بتشييد بنيانه، ومن ملامح القوة التي كان يمتلكها فرعون بعد سياسته الدكتاتورية وآثاره العمرانية هي قوته العسكرية؛ فقد كان له جنود كثر يأتمرون بأمره حتى عاثوا في الأرض فسادًا، قال الله تعالى في الكتاب المجيد مبينًا أن فرعون الطاغية بلغ مبلغًا في قوته وسطوته على شعبه: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ. الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴾ ]سورة الفجر، آية: 10، 11[، قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: « قال العوفي عن ابن عباس: الأوتاد: الجنود الذين يشدون له أمره»[22]، ومما سبق تبين أن فرعون كان ممن أعطاه الله قوة عظيمة لكنه أساء استعمالها حين سخرها في إخضاع شعبه وإذلاله، وكان لتلك القوة من التأثير البارز في غرس الذلة والمسكنة داخل نفوس الأتباع الشيء الكبير.

- **أثر القوة والسلطان كعامل من عوامل الاستدراج**

إن المجتمعات المستضعفة لا تخلو من شغف عارم يدعوها للتخلص من الظالم وردعه إلا أن الطغاة – ومنهم فرعون – يستخدمون قوتهم وجاههم على وجهين اثنين فتراهم يفسدون المجتمعات بنشر الطبقية والعنصرية ليضمنوا انشغال الشعوب في مشاكلهم الخاصة بهم بعيدًا عن طمع السلطة، ثم تراهم يستخدمون قوتهم وسلطانهم في إبراز الرعاية والحماية التامة لشعوبهم ضد خصوم الدولة في حال قبلوا الطاغية رأسًا لهم مدَّعين أن أولئك الخصوم خصوم للشعب، فنجد أن فرعون الذي جعل من أهل مصر شيعًا وجماعات يظهر قوته أيضًا بين شعبه تطمينًا لهم بنصره على من يصورهم كظلمة لشعبه؛ فيقول كما حكى الله عنه في كتابه: ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ]سورة الزخرف، آية: 83[، ثم يغرس في قلوب قومه أن المَنَعة والتمكين إنما تصدرهما القوة و السلطة فيقول في موسى عليه السلام كما حكى رب العزة: ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ. فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ ]سورة الزخرف، آية: 52، 53[، فنراه يُظهر مقارنة سطحية ينخدع بها العوام الضعفاء غالبًا، فهم يرون الكنوز مع فرعون ولا كنوز مع موسى عليه السلام ، ويرون الأعوان الأشداء مع فرعون ولا يرونهم مع موسى عليه السلام فتنخدع قلوبهم به فيطيعونه قال تعالى: ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ ]سورة الزخرف، آية: 54[، يقول سيد قطب معلقًا على القصة «والجماهير المستعبدة المستغفَلة يغريها البريق الخادع القريب من عيونها ولا تسمو قلوبها ولا عقولها لتدبر ذلك الملك الكوني العريض البعيد»[23]، وأيضًا عندما انهزم فرعون أمام معجزة موسى عليه السلام بحضور شعبه وجدناه يبرز قوته كعادته قال تعالى حاكيًا حاله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ]سورة الأعراف، آية: 123[، ثم ينفذ وعيده في خطوات متتالية لإرهاب شعبه؛ من أجل إظهار القوة في البطش لكل معارض؛ حتى يضمن رضوخ شعبه، وحتى عندما فر موسى عليه السلام ومن معه لم يتركهم وشأنهم بل أعلن بين أرجاء شعبه أن قوته لا يهرب منها أحد؛ ضمانًا منه لتعشيش الرعب في نفوسهم فلا يخالفه أحد ولا يفكر أحد في الفرار والتمرد، قال الله تعالى:

(**22**) ابن كثير، عماد الدين إسماعيل بن عمر، ( 1420هـ – 2000م)، تفسير القرآن العظيم، دار إحياء التراث العربي، ط1، ج5، ص501.

(**23**) قطب، سيد بن إبراهيم، ( 1423هـ – 2003م)، في ظلال القرآن، دار الشروق، ط32، ج5، ص3193.

﴿فأرسل فرعون في المدائن حاشرين. إن هؤلاء لشرذمة قليلون. وإنهم لنا لغائظون﴾ ]سورة الشعراء، آية: 53، 54، 55[، ثم خرج بجحافل جنوده قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾ ]سورة طه، آية: 78[، والمتأمل في حالة فرعون المتغطرسة يجد أنه اعتمد اعتمادًا كبيرًا على قوته في سياسة حكمه وتوطيد عرشه أملًا منه في فرض هيبته على الشعب إذا أن الهيمنة التامة لا تأتي إلا بالهيبة، والهيبة على اختلاف معانيها هي سبيل الهيمنة، يقول لوبون في كتابه سيكولوجية الجماهير: « وكل ما هيمن على العالم من أفكار أو بشر فرض نفسه أساسًا عن طريق القوة التي تعبر عنها كلمة هيبة»[24]، وانعكاس تلك الهيبة كان ظاهرًا في وجوه الناس على شكل الخوف المبطن بوقود الثورة؛ ولذلك نجد أن بني إسرائيل شكوا ما ينتابهم من الرعب لموسى عليه السلام فقالوا كما حكى عنهم رب العزة: ﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ ]سورة الأعراف، آية: 129[، وكنتيجة طبيعية لهذه الأجواء فرضت القوة نفسها لتسيطر على الجماهير، ومهدت طريقًا واسعًا، وساحة فارغة يرسم فيها الطاغية ما يشاء من أفكاره، فقد وجد فرعون نفسه أمام شعب لا يزن بميزان الإيمان وإنما بميزان المظاهر فسهل عليه خداعهم واستدراجهم عندما خرجوا عن مسارهم الصحيح، قال ﷻ مبينًا حال تلك الجماهير التي تأثرت بقوة وملك الطاغية فرعون: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ]سورة الزخرف، آية: 54[، قال سيد في تعليقه على هذه الآية: « ولا يملك الطاغية أن يفعل بالجماهير هذه الفعلة إلا وهم فاسقون لا يستقيمون على طريق ولا يمسكون بحبل الله ولا يَزِنون بميزان الإيمان»[25].

**ثانيًا الملأ ودورهم في صناعة التبعية لدى الجماهير**

- **الملأ ودورهم في صناعة التبعية لدى الجماهير**

تطلق كلمة الملأ في اللغة على «الأشراف من قومه»[26]، والحاكم بطبيعة الحال يلزمه وجود ملأ من عِلية القوم يحفونه بالمشورة، ويعينونه على اتخاذ القرار، وسواءً كان الحاكم مستبدًا أم عادلًا فلا بد له من وجود الملأ من حوله خصوصًا في أنظمة الحكم التي تحمل طابع الدولة أو السلطنة، على خلاف الأنظمة القَبَلية كملأ قريش، وملأ قوم شعيب، وقوم نوح، وغيرهم فهي أنظمة لا تقوم على رأس واحد، وفيها يكون الملأ هم مصدر المشورة والقرار، أما الأنظمة السائرة في سلك الدولة أو السلطنة فلا بد لها من رأس يدير البلاد، ولا بد له من ملأ يحفونه ويشاورونه بل ويشاركونه في أمور الحكم إن استلزم الأمر، كملأ بلقيس وملأ ملك مصر في عهد يوسف عليه السلام وملأ فرعون في عهد موسى عليه السلام، فنجد أن الحاكم مهما بلغت حكمته وعدله فلا بد له من استشارة ملئه، وحتى إن كان ظالما مستبدًا برأيه فهو إنما يستمد قوة ظلمه واستبداده من توفير الأجواء المناسبة لذلك من قِبَل الملأ إذ أنهم هم من يُثبِّت له العرش كونهم عِلية القوم، وينقادون لأمره فكيف سيكون حال باقي الرعية؟!

ولذلك ترى المستبدين يقربون ملأهم إليهم، ويشاركونهم مجالسهم، ويعينونهم على قضاء احتياجاتهم، بل ويجعلونهم يشاركون في اتخاذ القرار إن استدعى الأمر ذلك كما فعل فرعون مع ملئه.

(**24**) غوستاف لوبون، ( 1991م)، سيكولوجية الجماهير، دار الساقي، ط1، الطبعة العربية، ص137.

(**25**) سيد قطب، مصدر سابق، ج5، ص3194.

(**26**) الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله ( 1414هـ)، فتح القدير، دار ابن كثير، دمشق، ط1، ج2، ص247.

ومما سبق بيانه من تعريف الملأ، وبيان أحوالهم مع الملوك والسلاطين يظهر جليًا مدى أهميتهم في حياة الحاكم، وتثبيت عرشه وتسيير شؤون الدولة من خلالهم، وهذا ما سيظهر في حال فرعون مع ملئه ومدى تأثيرهم بالغ الأهمية في استدراج قوم فرعون وإبعادهم عن طريق الحق والصواب.

- **دور ملأ فرعون في صناعة القرار**

إن دور ملأ فرعون في صناعة القرار في مصر كان له أثر بارز في صناعة الوعي العام للجماهير المصرية آنذاك، ولا يعني استبداد فرعون برأيه عدم حاجته للملأ أو إعانتهم له في صنع القرار حتى ولو تظاهر بذلك أو حاول إظهار ذلك للناس، فقد كان فرعون يستعين بملئه كثيرًا في ضبط الرأي العام لشعبه، وهذا من أشد وسائل الاستدراج تأثيرًا في الناس، ولشدة تأثير الملأ في المجتمع المصري لم يكن فرعون ليترك آراءهم في المواقف التي حصلت في حياته، قال تعالى حاكيًا مشاركة ملأ فرعون في صناعة القرار: ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ ]سورة القصص، آية: 20[، فنجد أن القرار بقتل موسى عليه السلام قبل نبوته كان قرارًا صادرًا من قصر الحكم بعد مشاورات حثيثة، قال ابن عاشور – رحمه الله– في تفسير معنى الائتمار: « وأصل الائتمار: قبول أمر الآمر فهو مطاوع أمره قال امرؤ القيس: (ويعدو على المرء ما يأتمر)، أي يضره ما يطيع فيه أمر نفسه، ثم شاع إطلاق الائتمار على التشاور؛ لأن المتشاورين يأخذ بعضهم أمر بعض فيأتمر به الجميع قال تعالى: ﴿ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾»[27] ]سورة الطلاق، آية: 6[، ولشدة أثر الملأ في صناعة القرار الفرعوني كانت معجزات موسى عليه السلام موجهة لفرعون وملئه على حد سواء، قال تعالى: ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ ]سورة القصص، آية: 32[، وحتى بعد وصول تلك المعجزات إلى مسامع وأنظار القوم تجد ذلك التأثير البالغ للملأ في التهييج لقرار فرعون ضد موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾ ]سورة الأعراف، آية: 127[، وهذا التقارب الشديد بين فرعون وملئه جعل منه مطمعًا لمن دونهم من الناس بل ومغنمًا يغنمونه، حتى ساغ لفرعون أن يعلنه كأمل وجائزة ينالها السحرة في حال انتصروا على موسى عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ. قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ]سورة الأعراف، آية: 113، 114[.

- **تأثير ملأ فرعون كعامل مهم من عوامل الاستدراج**

إن الغرور الذي كان عند فرعون حمله على الطغيان العظيم حتى جعل نفسه كإله يملك أرزاق الناس ويدبرها، قال تعالى: ﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ]سورة الزخرف، آية: 51[، ووجود الملأ من قوم فرعون بمظهر التابع الذليل المنقاد لأمر الطاغية ييسر انقياد من دونهم من طبقات المجتمع والذي يمثل السواد الأعظم في المجتمعات قديمًا وحديثًا، ولذلك نجد فرعون يظهر طغيانه وجبروته على كافة أطياف المجتمع كما ذُكر آنفًا مظهرًا سطوته وكبرياءه حتى على ملئه، قال الله تعالى حاكيًا عن جبروته: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ ]سورة القصص، آية: 38[، فإذا ما شعر بتفلّت الزمام من يديه برؤية حجج موسى عليه السلام وبراهينه تراه يُقرّب الملأ منه، ويسمع كلامهم، ويتقبل مشورتهم، قال تعالى: ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ

(27) ابن عاشور، مصدر سابق، ج20، ص96.

إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ ]سورة الشعراء، آية: 34، 35[، يقول سيد قطب معلقًا على هذه الآية: «وتلك شنشنة الطغاة عندما يحسون أن الأرض تتزلزل تحت أقدامهم؛ عندئذ يلينون في القول بعد التجبر، ويلجؤون إلى الشعوب وقد كانوا يدوسونها بالأقدام، ويتظاهرون بالشورى في الأمر وهم كانوا يستبدون بالهوى ذلك إلى أن يتجاوزوا منطقة الخطر ثم إذا هم جبابرة مستبدون ظالمون»[28].

والمدقق في حال فرعون كما ذكرت الآيات يجد أنه في مثل تلك الزعزعات التي كانت تصيبه ببراهين موسى عليه السلام ومعجزاته تجعله يلين للملأ دون غيرهم، ويقرب رأي الملأ دون غيرهم، فهو طلب مشورتهم بعد ظهور معجزة موسى عليه السلام ، وأغراهم بلينه وحسن كلامه بينما لم يكرر هذا الموقف عندما تعلق الأمر بالسحرة وذلك لسببين:

السبب الأول: أنه قد ضمن مساندة ملئه له، وذلك من خلال عدم ظهور ردة فعل منهم بعد التهديد الذي جاء به فرعون ضد السحرة، فكان قد أوقع في قلوبهم الرعب، بل وزاد اطمئنانه وتيقُّنه أنهم في صفه وتحت طاعته عندما أشاروا عليه بقتل موسى عليه السلام ومن معه فقالوا له: ﴿ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾]سورة الأعراف، آية: 127[، فرد عليهم وقد اطمأن جانبه قائلًا: ﴿ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ ]سورة الأعراف، آية: 127[.

السبب الثاني: حتى يضمن رضوخ الطوائف الأدنى طبقة من الملأ إذ إنهم كانوا قد اجتمعوا في حشد عظيم فضح الله أمامه زور فرعون وكذبه.

وفي الحقيقة أن ضمان فرعون لجانب نصرته من قبل ملئه يظهر أنه سبب جرأته أمام ضعفاء القوم؛ فالجماهير تتبع أكابرها في غالب الأمر ميلًا للعاطفة بعيدًا عن منطق العقل، يقول الطبيب غوستاف لوبون في كتابه سيكولوجية الجماهير « إن الجماهير لا تتأثر بالمحاجات العقلانية ولهذا السبب فإن محركي الجماهير من الخطباء لا يتوجهون إلى عقلها وإنما إلى عاطفتها فقوانين المنطق العقلاني ليس لها أي تأثير عليها»[29]. ومما سبق يظهر مدى التأثير الكبير لملأ فرعون على مجموع الشعب، ومدى كونهم عاملًا من العوامل الرئيسية التي اعتمد عليها فرعون في ترويج نفسه كإله وتوطيد حكمه الظالم كأمر واقع لا يمكن العيش بدونه، وهكذا هو حال ملأ الظالمين في كل زمان ومكان يستخدمهم رؤساؤهم في استدراج الضعفاء والمكر بهم فيأمرونهم باتباع الظالم والانقياد له، وقد حكى لنا الله تعالى الجدل الحاصل بين الضعفاء والمستكبرين يوم القيامة، ووضح عِلَّة النقمة التي ينقم بها الضعفاء على المستكبرين فقال تعالى حاكيًا قول الضعفاء للمستكبرين: ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ﴾ ]سورة سبأ، آية: 33[، قال السعدي – رحمه الله– في تفسير هذه الآية: « بل الذي دهانا منكم ووصل إلينا من إضلالكم ما دبرتموه من المكر في الليل والنهار إذ تحسنون لنا الكفر وتدعوننا إليه وتقولون أنه الحق ، وتقدحون في الحق وتهجنونه وتزعمون أنه الباطل فما زال مكركم بنا وكيدكم إيانا حتى أغويتمونا وفتنتمونا»[30].

(28) سيد قطب، مصدر سابق، ج5، ص2594.
(29) غوستاف لوبون، مصدر سابق، ص114. بتصرف.
(30) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله، (1424هـ - 2003م)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام

ويظهر دور ملأ فرعون كعامل مهم من عوامل استدراج قوم فرعون والسعي بهم إلى الضلال المبين في دعوة موسى عليه السلام عليهم، وقد بين الله تعالى ذلك في كتابه فقال: ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ ]سورة يونس، آية: 88[، فكان من حال الملأ أنهم ضلوا وأضلوا الناس وقد قرنهم موسى عليه السلام بفرعون فدعا عليهم جميعًا؛ لما كان لهم من أثر بالغ في إضلال الناس وإغوائهم، قال السعدي – رحمه الله – في تفسير هذه الآية « أي أنَّ أموالهم لم يستعينوا بها إلا على الإضلال في سبيلك فيَضلون ويُضلون»[31]، وهنا يتجلى قرب الملأ من فرعون كعامل مهم من العوامل التي ساعدت فرعون في تسهيل استخدام أساليب الاستدراج المتاحة أمامه بين شعبه.

## المبحث الثاني: الوسائل والأساليب التي استخدمها فرعون في استدراج قومه ومقارنتها بالواقع، وفيه مطلبان: المطلب الأول: الوسائل التي استخدمها فرعون في استدراج شعبه ومقارنتها بالواقع، والمطلب الثاني: الأساليب التي استخدمها في استدراج شعبه ومقارنتها بالواقع.

إن اكتساب الطاغية لشعبية ساحقة في مجتمعه سواءً كانت عن رغبة حمقاء كما فعل قوم فرعون حين استخفهم فأطاعوه، أو كانت بالقوة كما كان حال بنو اسرائيل قبل بعثة موسى عليه السلام ، فهذه الشعبية لا تأتي بسهولة ويسر أبدًا، لأن الطغاة في كل زمان ومكان يُعِدُّون العدة، ويتسلحون بوسائل عدة، وأساليب متنوعة ليصلوا إلى الهيمنة المنشودة، وكذلك كان حال فرعون؛ فعندما تهيأ له الوضع بواسطة العوامل التي ذكرناها سابقًا بذل قصارى جهده للحفاظ على شعبيته بين قومه، خصوصًا بعد ظهور دين جديد له شريعة أخرى غير قوانينه، وله مسلك آخر يجعل السيادة حقًا لجميع البشر، على خلاف مسلك الطاغية فرعون الذي يجعل من نفسه إلهًا ومن غيره عبيدًا له، فكان لا بد له من استخدام تلك الوسائل والأساليب التي تظهر من خلالها قوته ممتزجة برأفته، ويظهر من خلالها اهتمامه بمصالح شعبه، والسعي للحفاظ على مُقَدَّرَاتهم، وتقاليدهم التي سيغيرها الفكر الدخيل على مصر – حسب زعمه –، فهو الآن أمام تحدٍ ليس باليسير يجب عليه اتباعه والانصياع له، أو مواجهته بشتى الوسائل والأساليب، ودائمًا يكون هذا الأخير خيار الطغاة المفضل مهما تجلت أمامهم الحقائق، وصدق الله إذ قال في تعاملهم مع آيات الله، ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ ]سورة النمل، آية: 14[.

وفي هذا المبحث ظهرت بعض الوسائل والأساليب التي استدرج بها فرعون طائفة من شعبه ممن أطاعوه، والتي رسَّخت لمفهوم الطاغية الدكتاتور أوصافًا لازمته منذ أيام فرعون حتى يوم الناس هذا، بل ولازمت كل طاغية يظهر قديمًا وحديثًا.

### المطلب الأول: الوسائل التي استخدمها فرعون في استدراج قومه ومقارنتها بالواقع

#### أولًا: المال

إن المتأمل في قصة فرعون مع شعبه يجد أنه قد استدرج طائفة كبيرة منهم بالمال، ويظهر ذلك جليًا في دعاء موسى عليه السلام على فرعون فيما ذكره الله تعالى لنا في القرآن بقوله ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ

المنان، دار ابن حزم، ط1، ص649.

(**31**) السعدي، مصدر سابق، ص348.

وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ﴾ ]سورة يونس، آية: 88[، فقد كان إضلال فرعون لشعبه قائمًا على استخدام وسيلة المال، ومن خلال ذلك الأجر الذي عرضه فرعون على السحرة في مواجهتهم مع موسى عليه السلام يظهر أيضًا أن الشعب كان شعبًا ماديًا يسهل استدراجه واسترضاؤه بحفنة من المال، وقد علق سيد قطب – رحمه الله – على تلك القصة قائلا: «وكلما انحرفت الأوضاع عن إخلاص العبودية لله وإفراده ﷻ بالحاكمية، وقام سلطان الطاغوت مقام شريعة الله، احتاج الطاغوت إلى هؤلاء المحترفين وكافأهم على الاحتراف وتبادل وإياهم الصفقة: هم يُقِرُّونَ سلطانه باسم الدين، وهو يعطيهم المال ويجعلهم من المقربين»[32]، وقد بيَّن لنا الله ﷻ أن طريق الصدِّ عن الحق واستجلاب الأتباع نحو الباطل يمر عبر وسيلة المال فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾ ]سورة الأنفال، آية: 36[، ويتضح من خلال السياق القرآني الذي عرض لنا قصة فرعون أنه كانت لديه عروضٌ مغرية يجعلها على صورة مكافآت لكل من يتبع أمره، مما جعل السحرة يطلبون الأجر منه، ويستوثقون وجوده في حال غلبتهم، ومما يُظهِر لنا خطورة هذه الوسيلة في حال استُخدمت بطريقة خاطئة في المجتمعات، تلك التحذيرات الربانية في القرآن الكريم التي حذرت المؤمنين من خطورة المال وخصت بالتحذير نبي الأمة محمدًا ﷺ قال تعالى: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ﴾ ]سورة التوبة، آية: 55[، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ ]سورة التغابن، آية: 15[، وبهذه الطريقة استطاع فرعون أن يغلق عقول كثير من الناس، ويغرس فيهم حب التبعية استجلابًا للمال فقط، وكان المال أيضًا من الأوراق المهمة التي ضغط بها فرعون على شعبه، فقد كان حريصًا على استضعافهم من خلال شتى الوسائل، ومن أبرزها المال ليكون بذلك مقصد حاجات الناس، ويستغل حاجتهم وفق ما تقتضيه مصلحته، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ ﴾ ]سورة القصص، آية:4[، وقد عُرف المال كوسيلة أولى لاستدراج الآخرين، وضمِّهم إلى صفوف الموالين، واستمر حتى يوم الناس هذا فدأب الظالمين قائمٌ على شراء الولاءات، واستجلاب الأنصار عن طريق المال، ويكثر حينها الأتباع الضعفاء عُبَّاد المادة.

**ثانيًا: القمع**

إن الحكم الاستبدادي القامع لكل حركات التمرد المنتفضة عليه يعد وسيلة مهمة لبث روح الضعف والوهن في المجتمعات المحكومة، وذلك الضعف بدوره يجعل من الحاكم الدكتاتور مالكًا لزمام الأمور وحاميًا للمجتمعات في أعين جماهيره مما يكسبه شعبية هي الأخرى أتت عن طريق الاستدراج عبر وسيلة القمع، وقد كان لفرعون في هذا الباب أنواع عديدة من القمع يمارسها على شعبه؛ ليضعفهم وكان له من الصرامة التي يتعامل بها مع مخالفيه ما يزيد هيبته في نفوس الجماهير، فكان قمعه باديًا في تعامله مع بني إسرائيل حين ذبح أبناءهم واستحيا نساءهم قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ]سورة البقرة، آية: 49[، ثم في تعامله مع موسى عليه السلام حين قتل الرجل في المدينة حيث إنه اتخذ قرار القتل مباشرة بكل صرامة، قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ ]سورة القصص، آية: 20[، ثم في تعامله مع السحرة الذي أظهر فيه أعلى

(32) سيد قطب، مصدر سابق، ج3، ص1349.

درجات العذاب على مخالفيه قال تعالى: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ ]سورة طه، آية: 71[، وختامًا بخروجه مع جيشه ليقمع تلك الشرذمة القليلة الفارّة بدينها من ظلمه وجبروته كما ذكرنا سابقًا، وقد ذكر لنا القرآن ذلك كله في عدة مواضع في الكتاب العزيز، وبيّن مدى شدة قمعه لقومه، وسماه عذابًا مهينا قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ. مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ ]سورة الدخان، آية: 30، 31[، وفي هذه الوسيلة يقول المؤرخ والطبيب الفرنسي لوبون: «إن الاستبداد والتعصب يشكلان بالنسبة للجماهير عواطف واضحة جدًا، وهي تحتملها بنفس الصورة التي تمارسها؛ فهي تحتمل القوة ولا تميل إلى احترام الطيبة التي تعتبرها نوعًا من أنواع الضعف، وما كانت عواطفها متجهة أبدًا نحو الزعماء الرحيمين والطيبي القلب، وإنما على المستبدين الذين سيطروا عليها بقوة وبأس»(33)، ولا يعني هذا الكلام الحض على الاستبداد في الحكم وقمع المجتمعات، إنما هو عرض لحالة الجماهير التائهة التي لا هدف لها، والتي يسهل الاستخفاف بعقولها كما هو حال جماهير الطاغية فرعون تلك الجماهير المتعطشة لإشباع شهواتها، وملء بطونها الخارجة عن دائرة الاتزان، والواقع المشاهد اليوم يشهد بأن المجتمعات المسلمة انحدرت نحو الحضيض، وخرجت عن دائرة الاتزان؛ فتسلط عليها الظالمون، واستخفوا بعقول الجماهير يوم أن استطاعوا أن يحرفوا بوصلة الحياة من معناها الواسع المتصل بالآخرة إلى المعنى الضيق المقصور بالحياة الدنيا، كذلك مفهوم القدرة: من القدرة المطلقة لله تعالى إلى ربطها بكل صاحب قوة وسلطان، فنجد السلطات الحاكمة لبلاد الإسلام تمارس أشد أنواع القمع على الشعوب، وتنشر الفوضى بين المجتمعات، وتفرض هيبة السلطان الذي يملك زمام الأمن والسلام وبدونه تجف منابع الحياة، وبمجرد انطباع هذه الفكرة في عقول الجماهير؛ تراهم يستحسنون تلك الأساليب الظالمة ضد المستضعفين من المعارضين ويميلون ناحية الظالم .

**ثالثًا: السحر**

إن القارئ لكتب التاريخ والتفسير يجد أن الزمن الذي عاش فيه فرعون كان زمنًا اشتهر فيه السحر والكهانة، ولهذا السبب كانت معجزة سيدنا موسى عليه السلام تشبه ما برع به أولئك القوم، وقد استخدم فرعون ما برع به قومه كذلك في استدراج جَهَلة شعبه وجماهيره، فكان السحر وسيلة مهمة عنده، وكان استخدام فرعون لهذه الوسيلة في استدراج قومه قائمًا على حالتين:

**الحالة الأولى:** استخدام فرعون لوسيلة السحر على أنها نوع من القوة التي يستخدمها الحاكم في البطش بمخالفيه، وكانت هذه الحالة ظاهرة بشكل غالب قبل حشد فرعون جماهيره ليشهدوا مبارزة موسى عليه السلام مع السحرة، ويظهر ذلك جليًا من مدح فرعون لبراعة موسى عليه السلام في السحر – على حد زعمه – عندما عرض عليه الآيات لأول مرة قال تعالى: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ. وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ. قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ ]سورة الشعراء، آية: 32، 33، 34[، فبإقراره أن معجزة موسى عليه السلام ـ والتي سماها سحرًا ـ شيء عظيم ومبهر نجده يخفي تحت هذا الإقرار ملامح الهزيمة والرعب الذي أصابه، ومع تيقنه أن تلك آية من عند الله إلا أنه وصفها بأنها سحر؛ ليكون

(33) غوستاف لوبون، مصدر سابق، ص77.


https://doi.org/10.54582/TSJ.2.2.58

استخدامه للسحر في هذه المرحلة استخدامًا يجذب إليه أتباعه المعجبين بإنصافه لبراعة موسى، والمعجبين أيضًا بذكائه وشورويته التي اتخذت القرار السديد بمحاربة السحر بالسحر قال تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ. قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ. يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ ]سورة الشعراء، آية: 34، 35، 36[، يقول سيد قطب معلقًا على هذه الآية: «وفي قولة فرعون هذه يبدو إقراره بعظمة المعجزة وإن كان يسميها سحرًا فهو يصف صاحبها بأنه ساحرٌ عليم ويبدو ذُعره من تأثر القوم بها فهو يغريهم به ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ ﴾، ويبدو تضعضعه وتهاويه وتواضعه للقوم الذين يجعل نفسه لهم إلهًا، فيطلب أمرهم ومشورتهم ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ ومتى كان فرعون يطلب أمر أتباعه وهم له يسجدون!»[34] ،وفي هذه الحالة أيضًا يطلب فرعون جمع السحرة البارعين ليواجهوا موسى ليخطو بهذا القرار خطوة أخرى تلمع صورته المنصفة أمام جماهيره ثم نجد أنه يعلن ذلك الإعلان الغريب الذي يلمع فيه حرفة السحر ويحث على اتباعها فيقول ﴿لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ﴾ ]سورة الشعراء، آية: 40[، ومن خلال هذا الإعلان المدوي يظهر استدراج فرعون لتلك الجماهير المدوية عبر السحرة، وثقته بهزيمة موسى في هذه المواجهة قال السعدي – رحمه الله – في تفسيره : « ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ أي: قالوا للناس: اجتمعوا لتنظروا غلبة السحرة لموسى، وأنهم ماهرون في صناعتهم، فنتبعهم، ونعظمهم، ونعرف فضيلة علم السحر، فلو وفقوا للحق لقالوا: لعلنا نتبع المحق منهم ولنعرف الصواب، فلذلك ما أفاد فيهم ذلك إلا قيام الحجة عليهم»[35]، وما كانت تلك الحيل والاتهامات التي جاء بها فرعون إلا دفاعات يدافع بها عن عرشه الذي كاد أن يسقط بعد ظهور آية موسى عليه السلام ، وتمهيدًا للمرحلة الثانية نجد أنّ فرعون وملأه قد جهزوا فكرة ضالة تتمحور في أن موسى عليه السلام إنما جاء بهذه الحيل – حسب زعمهم – للاستيلاء على السلطة والاستحواذ على العرش، وتظهر هذه الأصوات باكرًا ليتم نشرها بين الجماهير في المرحلة الثانية والتي كان يعلم بها فرعون إذ إنه يعلم أن موسى ليس بساحر وأنه مغلوب أمام نبي الله لا محالة قال تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى. فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ ]سورة طه، آية: 57، 58[، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ. قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ. قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ ]سورة يونس، آية: 76 – 78[، وكان لهذا الاتهام أثره في تحول مسار وسيلة السحر المزعومة كوسيلة تبين الحق من الباطل إلى مسار آخر تمامًا.

**الحالة الثانية:** استخدام فرعون السحر كوسيلة لاتهام موسى بالكذب والدجل، وتظهر هذه الحالة بشكل جلي في لحظة إيمان السحرة برب موسى وهارون – عليهما السلام – حيث أصبح السحر جريمة في حق السحرة وحق موسى عليه السلام ، وبعد أن كان السحرة أداة لاتباع فرعون في حال نصرهم هاهم الآن متهمون بتهمة كانت تعتبر قبل هذا الموقف حرفة ومهارة يبحث عنها فرعون وجنوده ليواجهوا بها موسى قال تعالى: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ

(**34**) سيد قطب، مصدر سابق، ج5، ص2594.
(**35**) السعدي، مصدر سابق، ص562.

وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ ]سورة طه، آية: 71[، ومتهمون أيضًا بالفساد وإقلاق السكينة العامة؛ فهم يستخدمون السحر ليخرجوا أهل مصر منها ويستولوا على الحكم – على حد قولهم – قال تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ. قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ. قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ]سورة الأعراف، آية: 120 – 123[، وهنا تترتب الأوراق لتصبح آيات موسى التي يسميها فرعون سحرًا رمزًا للكذابين، بعد أن كان السحر رمزًا للدهاء وحرفة من الحرف قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ. إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ ] سورة غافر، آية: 24[، ويصبح وسيلة للخراب بعد أن كان عملًا محترمًا يوزع فرعون الأجور على محترفيه المناصرين له، بل وتضخم الجريمة بأنها مؤامرة لاغتيال السلطة، وبأن السحرة تواطؤوا مع موسى؛ ليظهر أمام الناس أن الغلبة لموسى فيتم الإعلان عن كشف المؤامرة، قال تعالى حاكيًا حال فرعون وهو يكشف المؤامرة — حسب زعمه – ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ ]سورة الشعراء، آية: 49[، وفي هذه المقولة يقول الحافظ ابن كثير – رحمه الله – «وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها ، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم، فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر؟ هذا لا يقوله عاقل»[36]، ولكنها الجماهير الجاهلة التي تتبع حديث الغلبة؛ قال السعدي – رحمه الله – في تعليقه على تلك الآية: «واستخف عقول قومه، وأظهر لهم أن هذه الغلبة من موسى للسحرة، ليس لأن الذي معه الحق، بل لأنه تمالأ هو والسحرة، ومكروا، ودبروا أن يخرجوا فرعون وقومه من بلادهم، فقَبِل قومه هذا المكر منه، وظنوه صدقا ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ ]سورة الزخرف، آية: 54[، مع أن هذه المقالة التي قالها لا تدخل عقل من له أدنى مسكة من عقل ومعرفة بالواقع»[37] فنجد أن فرعون رَوَّج للسحر حسب ما يخدم مصلحته، وكذلك الظالمون في كل زمان ومكان فهم يخادعون الناس، ويُغطُّون الحقائق، ويستخِفُّون بعقول الجماهير الجاهلة فيسحرونها بإعلامهم وشائعاتهم التي تستخدم الأحداث لمصلحتها أيًا كانت، حتى وإن أظهروها شرفًا للشعب اليوم، فلا يمانعون من إظهارها كعار للشعب غدًا إن كان ثمن ذلك أمان المناصب.

**المطلب الثاني: الأساليب التي استخدمها فرعون في استدراج قومه ومقارنتها بالواقع، وفيه (أسلوب الجدل، وأسلوب الاستدراج العاطفي).**

تعد الأساليب التي استخدمها فرعون في الاستدراج من الأساليب الفعالة؛ لما لها من تأثير كبير في نفوس الشعوب خصوصًا إذا كانت الشعوب تعاني من الجهل الذي يسهل للطغاة الاستخفاف بالعقول؛ فلذلك استغل فرعون جهالة شعبه واستخدم معهم تلك الأساليب، ومنها:

**أولًا: أسلوب الجدل**

إن من سنة الله في الأرض أن يوجد صراع دائم بين الحق والباطل تكون العاقبة فيه للمتقين، ولا يزال الظالمون في هذا الصراع يكيدون المكائد؛ ليبطلوا الحق ويطفئوا نوره، ومن الأساليب التي استخدمها الظالمون في إبطال الحق وإطفاء نوره هي الجدل الذي يسعى الظالمون من خلاله دائمًا أن يدحضوا به

(**36**) ابن كثير، مصدر سابق، ج3، ص339.
(**37**) السعدي، مصدر سابق، ص481.

الحق قال تعالى: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا﴾ ]سورة الكهف، آية: 56[، يعلق سيد قطب على هذه الآية قائلًا: «والحق واضح، ولكن الذين كفروا يجادلون بالباطل ليغلبوا به الحق ويبطلوه وهم حين يطلبون الخوارق ويستعجلون بالعذاب لا يبغون اقتناعا إنما هم يستهزئون بالآيات والنذر ويسخرون»[38]، وهكذا كان حال الطاغية فرعون في تعامله مع سيدنا موسى عليه السلام بل واستخدم الجدل كأول أسلوب يحاول به غلبة الحق وتشتيت عقول الناس واستدراجهم نحو الباطل، فهم وإن عرفوا الحق وطريقه فقد عرفوا ما هي الحجج والأعذار التي سيختلقونها لاتهام موسى عليه السلام بالفساد، وذلك من خلال ما استمعوا وشاركوا به من الجدل الذي أوجده فرعون للاستخفاف بعقول العامة.

ويذكر لنا الله ﷻ الجواب الأول الذي أجاب به فرعون موسى عليه السلام فقال حاكيًا جواب الطاغية: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ ]سورة طه، آية: 49[، وفي هذه البداية تظهر عناية فرعون بكلامه الذي يسمعه الناس الذين يريد استدراجهم، فهو وإن كان قد أخبره نبي الله موسى عليه السلام بأنه عبد من عباد الله، وأن الله رب الجميع، فقد خاطبهما مستنكرًا بضمير الخطاب ولم يستنكر حتى بضمير المتكلم وإن كان استهزاءً؛ قال ابن عاشور – رحمه الله –: «وأعرض عن أن يقول : فمن ربي؟ إلى قوله ﴿ فَمَنْ رَبُّكُمَا ﴾ إعراضاً عن الاعتراف بالربوبية ولو بحكاية قولهما، لئلا يقع ذلك في سمع أتباعه وقومه فيحسبوا أنه متردد في معرفة ربّه، أو أنه اعترف بأنّ له ربا»[39]، ومن هذه البوابة بدأ فرعون أسلوبه في الجدل ليشوش على الناس صوت الحق، فتارةً يسأل موسى عليه السلام عن حال الأمم السابقة، وتارةً يسأله عن برهانه ودليله، وتارةً يشرك ملأه في الجدال بسؤاله إياهم وطلب مشورتهم في أمر موسى عليه السلام، ويستمر كذلك حتى بعد أنْ عاقبه الله بالرجز، وبعد وعده لموسى عليه السلام أن يتركه وقومه، فتراه يعود للجدل مرة أخرى لتكون هذه المرة هي العلامة الفاصلة التي ظهر فيها استخفاف فرعون لقومه واستغفالهم قال تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ. وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ. فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ. وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ. أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ. فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ. فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ]سورة الزخرف، آية: 48 – 53[، قال ابن عاشور – رحمه الله –:»خشِي فرعون أن يتبع قومُه دعوةَ موسى ويؤمنوا برسالته؛ فأعلن في قومه تذكيرهم بعظمة نفسه ليثبّتهم على طاعته، ولئلا يُنقل إليهم ما سأله من موسى عليه السلام وما حصل من دَعوته بكشف العذاب وليحسبوا أن ارتفاع العذاب أمر اتفاقي إذ قومه لم يطلعوا على ما دار بينه وبين موسى من سؤال كشف العذاب»[40] وبهذا يظهر أن فرعون كان يستخدم أسلوب الجدل كثيرًا مع موسى عليه السلام ليشوش الأمر على الجماهير ويستدرجهم ولم يقتصر الأمر على موسى عليه السلام فقط، فقد استخدم نفس الأسلوب كذلك مع الرجل المؤمن الذي ناقشه، وقد صرح بذلك مؤمن آل فرعون رادًّا على أسلوبهم قائلًا: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ

(38) سيد قطب، مصدر سابق، ج4، ص2276.
(39) ابن عاشور، مصدر سابق، ج16، ص232.
(40) ابن عاشور، مصدر سابق، ج25، ص229.

أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ ]سورة غافر، آية: 35[ وكذلك حال الطغاة في كل زمان يحاولون مجادلة الحق؛ ليشوشوا على الجماهير، وإن تعددت الأشكال في الجدل إلا أنه يبقى ذلك الأسلوب الفعال الذي يُعَوِّل عليه الظالمون في استدراج شعوبهم، والناظر في حال الظالمين في زماننا يجد ذلك الأسلوب موجودًا حتمًا لكنه صار في أرقى أشكاله، فتجدهم يُقَنِّنُون الجدل باسم المفاوضات، ويُلَمِّعونه باسم حرية التعبير، وضرورة الحلول السلمية في أوضاع يكون الحق فيها غالبًا، أمَّا إن كان مغلوبًا فلا تسمع لهم ركزًا.

**ثانيًا: أسلوب الاستدراج العاطفي**

في كتابه سيكولوجية الجماهير يتكلم المؤرخ والطبيب غوستاف لوبون قائلًا: «وفيما يخص الجمهور نلاحظ أن المبالغة في العاطفة مُدَعَّمة من قِبَل الحقيقة التالية: بما أن هذه العاطفة تنتشر بسرعة شديدة عن طريق التحريض والعدوى؛ فإن الاستحسان والقبول الذي تلقاه ينتشر بشكل كبير»[41]، ومن هذا المنطلق يتبين لنا أن الجماهير تتبع العاطفة غالبًا وهو ما أسلفنا ذكره سابقًا، والمتأمل في حال قوم فرعون يجد أنه قد استخدم معهم أسلوب اللعب بالعواطف واستدرجهم من خلاله، فكان يستخدم معهم أسلوبَي التهييج بالعواطف منوعًا بينهما وهما: (الترغيب والترهيب)

**1ـ الاستدراج العاطفي بالترغيب**

تظهر في قصة الطاغية فرعون ملامح عجيبة تبين حبه لشعبه، والخوف عليهم، والحرص على مصالحهم، وتَظْهَر فيها صورة الطاغية فرعون كناصح أمين يرعى شؤون شعبه من الفساد وإقلاق السكينة العامة، وقد بين لنا القرآن الكريم هذه المواقف فقال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ (سورة غافر، آية: 26)، وقال في موضع آخر: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (سورة غافر، آية: 29)، وكان فرعون بهذه الألفاظ يستدرج تلك الجماهير المتعطشة للخطابات الرنانة التي تسكت جموح العاطفة الهائج في صدورها، فاستطاع فرعون بهذه العبارات ترغيب قومه وتقريبهم إليه، يعلق صاحب التفسير الوسيط قائلًا: «وهكذا الطغاة الماكرون في كل زمان ومكان يضربون الحق بكل سلاح من أسلحتهم الباطلة، ثم يزعمون بعد ذلك أمام العامة والبسطاء والمغلوبين على أمرهم أنهم ما فعلوا ذلك إلا من أجل الحرص على مصالحهم الدينية والدنيوية!!»[42]، وكذلك كان فرعون، فقد ظهرت ملامح استدراجه لشعبه بالترغيب في مواطن عدة كعرضه المغري للسحرة، وإعلانه لموسى عليه السلام ما كان منه قديمًا من رعاية وتربية واهتمام؛ ليظهر أمام الناس مظهر صاحب النعمة الذي أنكرها من أنعم عليه قال تعالى حاكيًا قوله: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ ]سورة الشعراء، آية: 18[، ولن تبرح عينك وأنت تقلب صفحات التاريخ قديمًا وحديثًا حتى تلقى نماذج عديدة من الظالمين الذين يغرون شعوبهم بأساليب متنوعة ومختلفة للترغيب، يستحوذون فيها على أفكارهم، ويعمون بصائرهم بأصناف العطاء، فإذا ما انكشفت الحقيقة أمام الناظرين أظهروا لهم المنّ وكأنهم أرباب نعمتهم. والمتأمل اليوم في أنظمة الواقع يجد هذا الأسلوب سائدًا ومنتشرًا في أوساط تلك الأنظمة؛ مما زاد من غواية الشعوب

(41) غوستاف لوبون، مصدر سابق، ص74

(42) طنطاوي، محمد سيد، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر، ط1، 1998م، ج12. ص280.

وتأليه الطغاة ظنًا من تلك الجماهير أن سعادتهم مع أولئك الظالمين الذين يغرقونهم بالأموال، والحقيقة هي أنهم يستدرجونهم لاستجلاب الأنصار والأعوان المنخدعين بالكرم الزائف والطريق المعوج قال تعالى حاكيًا حال قوم فرعون المغترين بأساليبه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ. إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ ]سورة هود، آية: 96، 97[

## 2ـ الاستدراج العاطفي بالترهيب

إن سياسة الترهيب التي استخدمها فرعون كانت قوية جدًا؛ فقد صنعت أثرًا في نفوس الجماهير حتى في نفوس أصحاب موسى عليه السلام ، وقد حكى الله –سبحانه وتعالى– في كتابه قصة فرار بني إسرائيل من فرعون، وصور لنا اليأس الذي ملأ قلوبهم بمجرد رؤيتهم لجيش الطاغية الذي تبعهم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ ]سورة الشعراء، آية: 61[، والمتأمل في سياق الآية ستجرُّه المعاني إلى مشاهد سابقة كثيرة كانت سببًا لهذه النفسية التي ظهرت عند بني إسرائيل لخصها الحق سبحانه بقوله: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ ]سورة يونس، آية: 83[، يعلق سيد قطب عند هذه الآية قائلًا: «وقد كان فرعون ذا سلطة ضخمة وجبروت، كما كان مسرفًا في الطغيان، لا يقف عند حد، ولا يتحرج من إجراء قاسٍ»[43]

يقول الطاهر ابن عاشور في تفسيره: « وجملة ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ في موضع الحال فهي عطف على قوله: ﴿ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ﴾ وهي تفيد معنى التعليل لخوفهم من فرعون، أي أنهم محقون في خوفهم الشديد، فبعد أن أثنى عَليهم بأنهم آمنوا في حال شدة الخوف زاد فبين أنهم أحقاء بالخوف، وفي هذا زيادة ثناء على قوة إيمانهم إذ آمنوا في حال خوفهم من الملك مع قدرته على أذاهم، ومن مَلئهم: أي قومهم، وهو خوف شديد؛ لأن آثاره تتطرق المرء في جميع أحواله حتى في خلوته وخويصته لشدة ملابسةِ قومه إياه في جميع تقلباته بحيث لا يجد مفراً منهم، ثم اتبع بيان اتساع مقدرة فرعون ببيان تجاوزه الحد في الجور، ومَن هذه حالته لا يزَعه عن إلحاق الضر بأضداده وازع»[44]، وقد ظهرت ملامح السياسة الترهيبية لفرعون في عدة مشاهد بدأت في ذبحه للأطفال، واستمرت حتى انتشار الجنود لقتل موسى عليه السلام الذي قتل القبطي، ثم بعذاب السحرة، واتباع موسى وقومه إلى البحر.

وتستمر تلك السياسة لتصل إلى زماننا هذا الذي ظهرت فيه كعنوان للحكم بل لا تكاد تجد حاكمًا إلا ويحكم بسطوة الترهيب؛ مما يجعل الجماهير العاطفية تتبعه وتظهر له السمع والطاعة خوفًا وفزعًا لا رغبة وطمعًا.

(43) سيد قطب، مصدر سابق، ج3، ص1815.
(44) ابن عاشور، مصدر سابق، ج11، ص260.

**الخاتمة**

وبعد سرد تلك الأحداث والمشاهد التي ظهرت من خلالها وسائل استدراج الظالمين لغيرهم وأساليبهم وبعض العوامل المعينة لهم على ذلك، بقي أن نذكر بأن فرعون الذي استخدم تلك الوسائل والأساليب في زمن موسى عليه السلام هو ذاته فرعون الحاضر التي ازدادت نسخه كثيرًا في زماننا، وأن تلك الجماهير التابعة للظالم هي ذاتها جماهير اليوم تتوزع بين مغتر بنعمة الظالم أو خائف من نقمته، ولا زالت آيات القرآن وقصصه شاهدة على ذلك وستبقى إلى قيام الساعة، ومن خلال ما سبق يظهر جليًا أن الكفاح ضد الظالمين وإظهار الحق أمامهم هو الحل الأنسب لردعهم عن ظلمهم، ولا بد لكل من سار على هذا السبيل أن يتحمل ألم المشاق التي تواجهه خصوصًا في ظل وجود مجتمعات جاهلة تنخدع بالمظاهر.

**النتائج والتوصيات**

**أولًا: النتائج**

من خلال ما تم عرضه في هذا البحث نقف على بعض النتائج المستنبطة منها وهي:

– إن لفظ الاستدراج يحتوي في اللغة على معانٍ عدة، وقد استخدم الباحثون تلك المعاني لصياغة تعريف للاستدراج.

– إن مصطلح الاستدراج مصطلح عام من حيث استخدامه فلا ينحصر على استدراج الله تعالى للعباد كما ذكرت أغلب الأبحاث صراحةً أو ضمنًا بل هو عملية تستخدم من جهة ذات قوة وعلم بالعاقبة نحو جهة مستضعفة مستغفلة وفق طريق مرسوم لا يعلمها المستدرَج.

– إن استدراج الظالمين لغيرهم يحصل نتيجة توفر عوامل كثيرة تحيط بالمستدرِج والمستدرَج، وتلك هي العوامل التي يستغلها الطغاة لاستدراج شعوبهم، ويحرصون على دوامها؛ ضمانًا لدوام استعلائهم.

– إن للظالمين نظرة خاصة نحو الجماهير التي يحكمونها، فهم وإن امتلكوا من الوسائل والأساليب ما يعينهم على الاستدراج، إلا أن غفلة الجماهير هي المعين الأول لنجاحهم، وتلك هي التركيبة التي يسعى الظالمون لبقائها في أذهان الجماهير.

– إن استغلال الظالمين للعوامل المعينة على استجلاب واستدراج الأنصار، والأتباع قائم على نوع الوسائل والأساليب المتعددة التي يستخدمونها، ويحرصون على تنوعها واستعمالها حسب ما تقتضيه المصلحة الشخصية بعيدًا عن مصلحة الشعوب.

– إن الواقع الذي نعيشه اليوم من استدراج للشعوب، وصناعة وهمية للعظماء عبر عملية الاستدراج قائم على نفس الوسائل والأساليب القديمة وإن اختلفت المسميات؛ فالجماهير ما دامت تعيش في دائرة غير متزنة شرعًا ولا عرفًا، فإن استخفاف الظالمين بعقولهم، واستجلاب طاعتهم لهم هو النتيجة الحتمية للمآل.

**ثانيًا: التوصيات**

1. نوصي أنفسنا والباحثين بمواصلة البحث في هذا الموضوع المهم الملامس لواقع الأمة والذي يرتقي بوعي الجيل الصاعد من أبناء المسلمين.
2. نوصي الشعوب العربية والإسلامية بالسير وفق المنهج القرآني والنبوي والحذر من الوقوع في شراج استدراج الظالمين لعقول شعوبهم الغافلة.
3. نوصي ولاة أمور المسلمين بالتزام حدود الشرع في وسائلهم وأساليبهم التي يستخدمونها في الحكم وأن يجتنبوا سبيل الظالمين.

.4

## المصادر والمراجع

القرآن الكريم.
1. ابن الأثير، ضياء الدين نصر بن محمد، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، دار نهضة مصر، ط2.
2. الأزهري، محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، دار إحياء التراث العربي، ط 1.
3. البغوي، الحسين بن مسعود بن محمد، ( 1409هـ- 1989م)، معالم التنزيل، دار طيبة لنشر والتوزيع، ط1.
4. جبران مسعود، ( 1992م)، معجم الرائد، دار العلم للملايين، ط7.
5. الجرجاني، علي بن محمد، معجم التعريفات، دار الفضيلة، ط(بدون).
6. ابن خلدون، عبد الرحمن محمد، (1425هـ – 2004م)، مقدمة ابن خلدون، دار يعرب، ط1.
7. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله، ( 1424هـ – 2003م)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، دار ابن حزم، ط1،
8. الطبري، محمد بن جرير بن يزيد، ( 1421هـ – 2001م )، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)، دار إحياء التراث العربي، ط1.
9. طنطاوي، محمد سيد، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر، ط1.
10. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، ط(بدون).
11. غوستاف لوبون، (1991م)، سيكولوجية الجماهير، دار الساقي، ط1، الطبعة العربية .
12. ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا، ( 1422 هـ – 2001 م)، مقاييس اللغة، دار إحياء التراث العربي، ط1.
13. الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين، (بدون)، ط (بدون).
14. الفيروز آبادي، ( 1991م – 1412هـ)، القاموس المحيط، دار إحياء التراث العربي، ط1.
15. القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي.
16. قطب، سيد بن إبراهيم، ( 1423هـ – 2003م ) ، في ظلال القرآن، دار الشروق، ط32.
17. ابن كثير، عماد الدين إسماعيل بن عمر، ( 1420هـ – 2000م )، تفسير القرآن العظيم، دار إحياء التراث العربي، ط1.
18. مجمع اللغة العربية، ( 1425هـ- 2004م)، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط4.
19. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار إحياء التراث الإسلامي، ط(بدون).